﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩﴾ [الشّعراء: 208 - 209]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إهلاكُ السّابقين سنَّةٌ ماضيةٌ في اللّاحقين، إذا دام الكفرُ بعدَ الإنذار

هاتان الآيتانِ وثيقتا الصِّلةِ بالسّياق الممتدِّ في سورة الشّعراء، فقد ذَكر اللّهُ ﷻ في السّورة هلاكَ الأقوامِ السّابقين، فرعونَ وقومِ إبراهيمَ وقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وأصحابِ الأيكة، فبَعد سردِ تلك الأخبار، ناسبَ أن يَذكُرَ حُكمًا عامًّا يَلُفُّهم جميعًا؛ فأخبر سبحانه تعالى أنّه لم يُهلِكْ قريةً من تلك القُرى إلّا بعد أن أرسل إليها مَن يُنذِرهم عذابَ اللّه ﷻ، ذِكْرَى لهم، وتبصرةً وإقامةً للحُجّة عليهم؛ لئَلّا يكون للنّاس على اللّه حُجّةٌ بعدَ الرّسل[1]، وهذا قريب من باب التّذييل على الأخبار السّابقة، بجملةٍ جامعةٍ للمتقدِّم كلِّه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: (هلك) أصلٌ يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[2]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيءُ هَلاكًا وهُلوكًا ومَهلِكًا: إذا ماتَ، فهو هالِكٌ[3]؛ والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يَصيرُ عاقِبتُهُ إلى الهَلاكِ[4]؛ ويُطلَق الهلاكُ والهلَكَةُ أيضًا على فقْدِ الشَّيْءِ مع وُجودِه مع غَيْرِه، وعلى مَصيرِ الشَّيْءِ إلى حيثُ لا يُدْرَى أين هو[5]؛ والإهْلاكُ: إعْدامُ ذاتِ المَوْجودِ وإماتَةُ الحَيِّ[6]، والمقصود بالإهلاك في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: الإفناء والإزالة، وإبطالُ وجودهم منَ العالَم الدّنيويّ[7].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 403، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 244.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هلك)، والهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 6/ 1935.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هلك).
(5) المطرزيّ، المعرب: (هلك).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 82.
(7) الرّاغب، المفردات: (هلك).

2) ﴿ذِكۡرَىٰ﴾: أصلُ (ذكر) الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان[1]؛ ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، فالذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بلسانكَ وأَظهرتَه؛ والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّال - بالقَلْبِ، يُقالُ: ما زالَ مِنّي على ذُكْرٍ، أَي: لم أَنْسَه[2]؛ والتَّذْكِرَةُ: ما تُستَذْكَرُ به الحاجةُ؛ واستَذكَرَ الشَّيءَ: دَرَسَهَ للذِّكْرِ؛ والاسْتِذْكارُ: الدِّراسَةُ لِلْحِفْظِ؛ والتَّذَكُّر: تَذَكُّرُ ما أُنسيتَه[3]؛ والذِّكْرى: اسمٌ للتَّذكير، وهي كثرةُ الذِّكر، وهو أبلغُ مِنَ الذِّكر، قال تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣﴾ [ص: 43][4]، والمُرادُ بالذِّكرَى في الآيةِ: التَّذكيرُ بما هو مَظِنَّةٌ أن يُنسى أو يُغفَلَ عنه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سـنَّـةُ الـلـه أن الإهـلاك لا يقع إلّا بعد الإنذار

توضِّحُ الآيةُ سنَّةً إلَهيَّة في شأن الأقوام والأُمم التي أنذرها اللّهُ تعالى ببَعثِ الأنبياء والمرسلين، والمعنى: (وما أهلكنا قريةً من هذه القرى - المذكورة في القرآن، وغيرِها ممّا لم يُقَصَّ عليكَ ذِكْرُه - إلّا بعدَ إرسال الرُّسُل؛ لإنذارهم بأسَ اللّه وعذابَه، قبلَ أن يقعَ بسبب كفرهم)؛ فإنَّ اللّه تعالى لا يَظلِم أحدًا من خَلْقه، ولا يعذِّب أحدًا بدون إنذار.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ واو ﴿وَمَآ﴾ ودلالتُها:

احتمالُ العطفِ والاستئنافِ لبيانِ مُجْمَلٍ بعدَ تفصيل

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ تحتمل أن تكون عاطفةً، عطفت جملةَ الخبرِ ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ على الجملة السابقةِ الخبريّةِ معنًى، وإن كانت إنشائيّةً

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(2) الشّيبانيّ، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (ذكر).

في لفظها؛ وهو ما يُسمّى عند البلاغيّين بالتّوسُّط بين الكمالَين، وتحتمِل أن تكون استئنافيّةً، استأنفتْ معنًى جديدًا، وهو أنَّ إهلاكَ اللّه للكافرين إنَّما يكون بعد إرسالِ الرّسل إليهم وإنذارهم، حتّى لا يكون لهم حُجّةٌ بعدَ الرُّسل.

نُكْتَةُ استعمالِ أداة (ما) في النَّفي:

الوعيدُ الشَّديدُ في طيّاته العدلُ الحميد

استعمَل النَّظمُ الكريم أداةَ النّفي (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا﴾؛ لتأكيد وتحقيق وتقرير عدمِ وقوعِ فعلِ الإهلاكِ إلّا بعدَ إرسالِ المُنذِرين، فأداةُ (ما) تُفيد العمومَ الشّموليَّ، وهو المناسبُ لتقرير هذه السُّنَّة الإلَهيَّة وتحقيق غرَضها؛ أي: أنَّه ما حصل إهلاكٌ لقومٍ منَ الأقوام إلّا بعدَ تحقُّق الإنذار، وهذا مع ما فيه من شديد الوعيد، إلّا أنَّه يحمل في طيّاته العدلَ الحميد.

بلاغةُ اختيارِ مفردة الإهلاك:

الإهـــلاكُ استئصالٌ شامل، وفناءٌ كامل

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإهلاك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ دونَ مرادفاتها، حيثُ تدلُّ هذه المفردةُ على أنَّ الإهلاك الذي نزل بالقرى كان شاملًا، واستئصالَ أهلِها كان كاملًا، وأنَّ العذاب أتاهم من فوقهم، فلم يُغادِر أحدًا، وهذا مستفادٌ من لفظ الهلاك الدّالِّ على الاستئصال غيرِ المُعقِّب؛ لأنَّ الهلاكَ يكون بإفساد الشَّيء المُهْلَك وإفسادِه تمامًا[1]، وهو ما حدثَ للأقوام المَقصوصِ إهلاكُهم في هذه السّورة، حيثُ فسدت حياتُهم، واندثرت أحوالُهم، فلم تقم لهم قائمةٌ.

دلالةُ إسنادِ فعلِ الإهلاك إلى ضمير العَظَمة:

تخويفُ المُكَذِّبين بالإيماءِ إلى شِدَّة الغضبِ

أُسند فعلُ الإهلاك إلى ضمير العَظَمة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ لتهويله وتعظيم أثره، فهو إهلاكٌ منَ العزيز الحكيم، دالٌّ على شدَّة العذاب، وشمولِ العقاب للمُهلَكين؛ لأنَّ

(1) الرّاغب، المفردات: (هلك).

العذابَ إذا صدر عنِ العظيم سبحانه لم يكن إلّا بعد غضبٍ، وعدلٍ، وفيه تحذيرٌ للمَكذِّبين مِن أن يسلكوا مسالكَ السّابقين في الكفر والجُحود، فيكونوا منَ المُعذَّبين في نار الخلود.

نُكْتَةُ ذكرِ حرف ﴿مِن﴾:

عـمـومُ النّـفـي واستغراقُه

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ دالٌّ على عموم النّفي واستغراقِه[1]؛ وقد تأكّد هذا العمومُ والاستغراقُ بوقوع النّكرة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ في سياق النَّفي.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ دون (أُمَّة):

القريةُ الهالكة هـي مـكـانُ الإجرام ومَجمَع المُجرمين

يُلمَحُ أنَّ الآية الكريمة جاء فيها ذِكْر ﴿قَرۡيَةٍ﴾ لا (أُمّة)، حيثُ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ وذلك أنَّ القرية تُطلَق على الموضع الذي يجتمع فيه النّاسُ، وعلى النّاس، وفيها معنى الاجتماع[2]؛ فلمّا كانتِ القريةُ دالَّةً على الموضع وساكنِه، ودَلّت على معنى الاجتماع واللّزوم والاستقرار؛ لَزِمَ من ذلك شمولُ العذاب وعمومُ الهلاكِ للمَوضِع ولساكنيه، ممّنِ اجتمع فيه واستقرّ منَ الكافرين المُعانِدين، أمّا الأمّة فليس فيها شيءٌ من هذه المعاني، فهي تُطلَق على القرْن منَ النّاس[3].

بلاغةُ أسلوبِ القَصْر:

القَـصْـر بالنَّفي والاستثناء هو الأنسَبُ في هذا السّياق

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، طريقُه النّفيُ والاستثناء، فقد قُصِرَ الإهلاكُ على القُرى التي أُرسِل إليها المرسلون فكفروا بهم؛ فيكون المعنى: "وما أهلكنا من قريةٍ ظالمين إلّا بعد أن ألزمناهم الحُجّةَ بإرسال المُنذِرين"[4]، وطريقُ النّفي والاستثناء من أقوى طرقِ القَصْر، فهو يُستعمَل في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5413.
(2) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (قرى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أمّ).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.

المعاني الفَخْمَة، والمقاماتِ التي يشوبُها جَدَلٌ وإنكارٌ، وسياقاتِ العذابِ والإهلاك؛ فكان القَصْرُ بالنّفي والاستثناء أنسَبَ لهذا السّياق؛ لدلالته على جميع صور الإهلاك المسرودة في السّورة.

توجيهُ المتشابِه اللّفظيّ بحذف الواو وذِكْرها:

ذِكْـرُ الـواوِ دالٌّ عـلـى مـعـانٍ مـحـذوفـةٍ، وحـذفُـهـا دالٌّ على إرادة المعنى المذكور

حُذِفت الواو في ﴿إِلَّا لَهَا﴾، من قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، ولم تُحْذَف في آية الحِجر: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝﴾ [الحجر: 4]، والأصلُ عدمُ وجودِ الواو؛ لأنّ الجملة صفةٌ لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، وإذا ذُكِرت فلتأكيدِ وصلِ الصّفة بالموصوف، كما في قوله تعالى: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: 22][1]؛ فليس القصدُ هنا التّأكيدَ على اتّصاف القرية بالإنذار، بعكس الأُخرى، فالصّفة المرادُ إثباتُها في آية الحِجر كونُ القرية ذاتَ كتابٍ سابق قد أُنزل على رسولها: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝﴾، والصّفةُ المُرادُ إثباتُها في آية الشّعراء كونُ القريةِ ذاتَ مُنذِرين، وفرقٌ بينَ الكتاب والمُنذِرين؛ لأنّ الكتاب ليس له من قوّة الظّهور ما للرُّسل، لذلك كان المقامُ في الحِجر مقامَ تأكيد، وهنا جماعةُ المُنذِرين، فهم ظاهرون، لا يحتاجون إلى التّأكيد الذي احتاجت إليه الأولى، فكانَ الذِّكْرُ والحَذفُ من أجلهما[2]، ومنَ الوجيه أن تكون الواو في آية الحِجر دالّةً على صفةٍ محذوفة مأخوذة من آية الشّعراء، والتّقدير: (إلّا لها منذِرون وكتابٌ معلوم).

دلالةُ استعمالِ حرف اللّام:

مـن رحـمـةِ الله تعالى أنْ خَصَّ كلَّ قريةٍ بنذير

اللّام في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ للاختصاص، أي: أنّ كلّ رسولٍ أُرسل إلى قومه خاصّة، فأنذرهم وحذَّرهم، وهذا الاختصاص يُشير إلى أنّه كان منَ الواجب على الأقوام أن يستجيبوا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 339.
(2) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 2/ 17.

لدعَوات أنبيائهم، فهم خاصَّتُه، وهو خاصَّتُهم، وهم أمّتُه التي يريد لها الخيرَ؛ لكنّها غفلت عن هذا، فكانت عاقبةُ أمرِها خُسْرًا.

بلاغةُ حذفِ موصوفِ ﴿مُنذِرُونَ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ حذفٌ للموصوف مع إقامة الصّفة ﴿مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ مقامَه، فلم يقل: (وما أهلكنا من قرية إلّا لها رسلٌ مُنذِرون)، وهذا الحذف دلَّ عليه السّياق؛ لأنَّ الإنذار من مهمَّة النّبيِّ المُرسَل، فالحَذفُ إيجازٌ في العبارة، وتلاحمٌ في النَّظم؛ والإنذار لازمٌ من لوازم الإرسال، فلا يكون الإنذار إلّا بعدَ الإرسال، فحذفُ صفةِ الإرسال للإشارة إليها، ولإغناء صفة الإنذار عنها بالذّكر، فالإنذارُ هو المقصود في هذا السّياق، وهو المرادُ في التَّهديد والوعيد.

الإنـــذارُ لازمٌ عـنِ الإرســال، وهـو مقـصودُه ومطلوبُه في هذا السّياق

نُكتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قول الله تعالى: ﴿لَهَا مُنذِرُونَ﴾ لتقوية حُكْمِ الإنذار والتّأكيد عليه، وللاعتناء بشأن القرية التي يعود الضّمير إليها، فهي المعنيّة بالحديث، فكان تقديم الضّمير العائد إليها أولى، وفي التّقديم مراعاةٌ للفاصلة القرآنيّة، التي لها أثرٌ في تحقيق جمال المبنى، لِما لها من جرس يشوق ويروق.

المقصودُ بالكلام هـو الـحَـقـيـق بالتّقديم

بلاغةُ اختيار مُفردة ﴿مُنذِرُونَ﴾:

آثَرَ النّظم القرآنيّ اختيارَ لفظة ﴿مُنذِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ لأنَّ هذه اللّفظةَ تحملُ المعانيَ المتناسِبةَ مع مهمَّة النّبيّ المُرسَل إلى قومِه، فهي تحمل معنى الإعلام[1]، ومعنى التّخويف، إلّا أنَّه تخويفٌ مع إعلامِ موضع المخافة[2]؛ ومعنى الوجوب ظاهرٌ في بعض دلالات المادّة[3].

الإنـــذار دالٌّ عـلى الإعـــلام الواجبِ المَشوبِ بالتَّخويف

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نذر).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 78.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).

بلاغة التّعبير بالجمع دونَ المُفرد ﴿مُنذِرُونَ﴾:

دعـــوةُ جـميـع الأنبياء متّحِدَةُ المقْصِد

آثَرَ النّظمُ القرآنيّ التّعبيرَ بصيغة الجمع ﴿مُنذِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ وكان مقتضى الظّاهر أن يأتيَ اللّفظ مفردًا، لأنَّ الضّمير ﴿لَهَا﴾ يعود على القرية، ويرسَل إليها رسول لا رسل، ولكنّ النّظم جمَعَ؛ لأنَّ لفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ "عامٌّ في القرى الظّالمة"[1]، أو "لأنَّ المُراد بهم النّبيُّ وأتباعُه المُظاهِرون له"[2]، وفي الإفراد كذلك إشارةٌ إلى أنَّ الرُّسُل مهما تنوّعت دعوتُهم، واختلفتْ أزمنتُهم، فإنَّ غرضهم واحدٌ، وأنّ دعوة الرّسول الواحد هي دعوةُ جميعِ الرّسل، وهي الإيمانُ باللّه وحدَه لا شريكَ له؛ فكأنّه حصلَ، بإرسالِ رسولٍ واحدٍ إلى قريته، إنذارٌ من جميع الرّسل.

أوجه إعرابِ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ وأثرُها في تكثير المعاني:

لكلِّ إعرابٍ دلالةٌ منَ المعنى تتّسق مع النّظم

كلمة ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تتعاورُها إعراباتٌ متعدِّدة[3]؛ ولكلّ وجهٍ إعرابيٍّ معنًى:

فيجوز أن تكون في موضع نصب، على أنَّها مصدرٌ لفعلٍ محذوف، والتّقدير: (يُذكِّرونَهم ذِكرى)، ففي هذا الإعراب تأكيدٌ قويٌّ على رسالة الرُّسُل، وأنَّهم جادّون في التّذكير، دائمون على الإنذار والتّبشير، وإشارةٌ إلى "إمعانهم في التّذكرة، وإطنابِهم فيها"[4].

ويجوز النّصب على أن تكون ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ حالًا من ضمير المفعول في ﴿مُنذِرُونَ﴾، أي: ينذرونهم ذوي تَذْكِرة[5]، وهذا الإعراب يكشِف عنِ الحرص الحثيث منَ الرّسل في تحقيق التّذكرة في نفوس

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 194.
(2) الخلوتيّ، روح البيان: 6/ 309.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 403، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 568، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.

أقوامهم، لدرجة أنَّ أقوامَهم صاروا متلبِّسين بالتّذكرة، من كثرة تكرارها عليهم.

ويجوز النّصب على أن تكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ مفعولًا له؛ إمّا لفعل الإنذار، على معنى: أنّهم يُنذِرون لأجل الموعظة والتّذكرة[1]، فعلى هذا الإعراب يكون غرضُ الرّسلِ تذكيرَ أقوامهم ووعظَهم؛ ترغيبًا وترهيبًا، وإمّا لفعل الإهلاك، والمعنى: "وَما أَهْلَكْنا من أهل قريةٍ ظالمين إلّا بعدَ ما ألزمناهم الحُجَّة بإرسال المُنذِرين إليهم؛ ليكونَ تذكرةً وعبرةً لغيرهم، فلا يعصون مثلَ عصيانهم"[2].

ويجوز أن تكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في موضع رفعٍ، على أنّها خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتّقدير: (هم ذكرى)[3]، أو: (تلك ذكرى)، أو: (هذه ذكرى)[4]، فعلى تقدير: (هم)، يكون فيه مبالغةٌ في وصف الرّسل، بأنَّهم مِن بالغِ تذكيرِهم جُعلوا كأنَّهم هم الذِّكرى نفسُها؛ وعلى تقدير: (تلك)، تكون الإشارةُ بالبعيد تعظيمًا لهذه الذّكرى، التي تأخذ بأيدي النّاس إلى ما فيه سعادتُهم؛ أو تكون الإشارةُ بالقريب (هذه)؛ دلالةً على قُرْب التّذكّر منَ الأقوام، وأنّه يسيرٌ عليهم، وفي متناول أيديهم.

ويجوز أن تكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ مرفوعةً على أنّها صفة، بمعنى: "مُنذِرون ذَوو ذِكرى"[5]؛ وعليه يكون الرّسل موصوفين بصفة التّذكير؛ إشارةً إلى أنَّ هذه الغاية دَيْدَنُهم وهِجّيراهم.

بلاغةُ الاعتراضِ بقوله: ﴿ذِكْرَىٰ﴾:

مـهـمّـةُ الـرّسـلِ الإنـذارُ وتحقيقُ العَدْل

على إعراب ﴿ذِكْرَىٰ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، والتّقدير: (هم ذكرى) أو (تلك ذكرى) أو (هذه ذكرى)، تكون جملةً اعتراضيّة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 568.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.

بين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، وبين قوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّ المعنى: أنّ إهلاكَ اللّه القريةَ بعدَ إنذارِ الرّسل لها ليس ظُلْمًا، فيكون الاعتراضُ هنا تركيزًا وتأكيدًا على مهمّة الرّسل وغرَضِهم، وهو إنَّما أُرسِلوا إلى أقوامهم لأجل التّذكرة والإرشاد؛ استعدادًا ليوم المَعاد؛ فالاعتراضُ بيانٌ لمُهمّة الرُّسل، وهي الإنذارُ وتحقيقُ العدل، لا التّعذيبُ بقصد إيقاع الظّلم.

بلاغةُ الفصل بقوله: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾:

جملةُ الإنذارِ تُتَمِّمُها وتُبَيِّنها جملةُ بيانِ التَّذكير

في قوله تعالى: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ فصلٌ عن قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ لو نظرنا على أنّها مصدرٌ لفعل محذوف، أي: (يُذَكِّرونهم ذكرى)، أو اعتبرناها خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: (هم ذكرى) ونحوها، فإذا اعتبرنا هَذَين الوجهين يكون قد فُصِلَ بينَ هذه الجملة وبين سابِقَتِها، وعِلَّة الفصل هو الاستئنافُ البيانيّ، المُسمّى بشِبه كمالِ الاتّصال؛ لأنّ الجملة السّابقة أثارت في النّفس سؤالًا، يمكن تقديرُه: ما مُهمَّة المُنذِرين الذين أُرسِلوا إلى تلك القرية؟ فيكون الجوابُ: يُذكّرونهم تذكرةً، أو هم ذكرى، فيصِحّ على تقدير مبتدأ محذوفٍ الاعتراضُ، وأن تكون استئنافًا بيانيًّا.

نوعُ واوِ ﴿وَمَا﴾ ودلالتُها:

الواو تحتمل العطفَ والحاليَّة

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، يجوز أن تكون عاطفةً أو حاليّةً، فإذا اعتبرنا القولَ بالعطف، تكون قد عَطفت جملةَ ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩﴾ على جملة ﴿لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ ويجوز أن تكون معطوفة على ﴿ذِكۡرَىٰ﴾، ويكون المعنى: (نُذَكِّرُكم ولا نَظْلِم)، وعلى القول بالحاليّة، فإنّها تكون حالًا منَ الضّمير في ﴿لَهَا﴾، أو حالًا منَ الضّمير المستتر في ﴿ذِكۡرَىٰ﴾؛ لأنّه كالمصدر، يقتضي مُسنَدًا إليه[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 128، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 19/ 128.

دلالةُ استعمالِ (ما) النّافية:

حـلـولُ العـقـاب عـلـى الـكـافـريـن بعدَ الإنذار عدلٌ

(ما) في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ نافيةٌ، نَفَتِ الظُّلمَ عنِ الله سبحانه وتعالى؛ فجملةُ ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ مفيدةٌ إعذارَ كفّار قريش، والإنذارَ بأنَّهم سيحِلُّ بهم الهلاكُ[1] إنْ هُم أصرّوا على عنادهم وكفرهم، وأنّ هذا ليس إلّا عدلًا منَ الله تعالى شأنُه، ومجيء (ما) هنا دالٌّ على عموم الظُّلم المَنفيّ، أي: ما كنّا ظالمين في أيِّ حالٍ منَ الأحوال.

بلاغةُ ذِكْر فعلِ الكون ﴿كُنَّا﴾:

الـلـهُ لا يَـظْـلِـمُ أحدًا منَ العالَمين

آثَرَ النَّظمُ الكريم ذِكْرَ ﴿كُنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، دون أن يُقال: (وما ظلمناهم)؛ وذلك لبيانِ أنَّ الله تعالى هذا شأنُه معَ الخَلْق جميعًا، وهو الأنسَبُ بالسُّنَّة الإلَهيّة المَذكورة، فكما أنَّه سبحانه ما أهلَكَ القرى إلّا بعدَ إنذارها، فكذلك لم يَظلِم أحدًا، فناسبَ العمومُ العمومَ؛ أي: (وما كنّا ظالمين لأحدٍ من العالَمين)، وهو أبلغُ من نفي الظُّلم عنِ القُرى على وجه الخصوص، فهو المتناسب معَ العموم؛ أي: ليس شأنُنا أن يَصدُرَ عنّا ما هو في صورة الظّلم لو صدر من غيرنا، بأن نُهلِك أحدًا قبلَ إنذاره، أو بأنْ لا نعاقبَ مَن يَظْلِم، ولإرادة نفي أن يكون ذلك من شأنه عزّ شأنُه قال: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ دون أن يقول: (وما نظلم)[2]؛ ففِعلُ الكَينونةِ في الآية دالٌّ على النّفي الدّائم، أو نفي الشّأن، أي: وما كان من شأننا الظّلمُ[3].

نُكْتَةُ التّعبيرِ عنِ العدل بنفي الظّلْم:

دفـعُ الأوهـامِ في هذا المقام

في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ نفَى اللهُ سبحانه وتعالى الظُّلمَ عن نفسه، دونَ إثباتِ العدل؛ وذلك لأنَّ المُعذَّبين منَ الكافرين قد يُصيبُهم وهُمْ ناشِئٌ عن سوءِ طَويّةٍ وفسادِ نيّة، بأنَّ إيقاعَ العقوبةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 128.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 132.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5413.

عليهم، وتعذيبَهم بسبب كُفرِهم، هو لونٌ من ألوان الظُّلْم، ولو سُبِقَ بإنذارٍ، فكان نفيُ ما يَجول في خواطرهم أبلغُ من إثبات ما هو مُقرَّرٌ، فهو ردٌّ استباقيٌّ على ما قد يَظُنُّه بعضُ المُعانِدين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإهلاكُ والتّدمير:

الإهـلاكُ أعـمُّ، والتّدمير أخصّ

الدَّمارُ استئصالُ المقصودِ بالدَّمار، يُقال: دَمَر القومُ يَدْمُرون دَمارًا، أَي: هَلَكوا[1]؛ والتَّدْمير: الإهلاكُ مع طَمس الأَثَر وهَدْم البِناء[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16]، أي: أهلكناها بإهلاكِ أهلها وتخريب ديارهم[3].

وأمّا الإهلاك: فهو الإفناء والإزالة، وإبطالُ الوجودِ منَ العالَم[4]، إمّا بالاستئصال، وإمّا بالموت[5]، وهو المناسب للآية هنا، لأنّه ليس من مقصود السّياق هنا الحديثُ عن نوع الهلاك، وإنّما القَصْد هو أنَّ الإهلاك لا يقع على الأُمم إلّا بعدَ إنذارِها وظهورِ كُفرها؛ وعلى هذا يكون الإهلاكُ أعمَّ، والتّدميرُ أخصّ.

القَرْية والمَدينة:

القريةُ أعـمُّ من المدينة

القريةُ فيها معنى الاجتماع، يقال: قَرَيْتُ الماءَ في الحوض، أي: جمعتُه؛ وقَرَيانُ الماءِ: مجتمعُه[6]؛ وتكون القريةُ مجمعًا لما اتّفق عليه النّاسُ من عاداتٍ وأفكار وتقاليد، والمدينةُ تُطلَق على الإقامة في المكان الذي يجتمع النّاسُ فيه، يقال: مَدَنَ بالمكان: أقام به[7].

أمّا عند تأمّل الاستعمالِ القرآنيَّ لهذَين اللّفظين، يُلحَظ أنّ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دمر).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 27.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 253.
(4) الرّاغب، المفردات: (هلك).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 466.
(6) الرّاغب، المفردات: (قرى).
(7) الأزهريّ، الصّحاح: (مدن).

القرية أعمّ منَ المدينة؛ فالقريةُ إمّا أن تكون اسمًا للموضع الذي يجتمع فيه النّاس، من ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: 58]، وإمّا أن تطلق على النّاس[1]، ومنه قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ [الكهف: 59]؛ أمّا المدينةُ فتُطلَق فقط على الموضع المُقام فيه، وعليه جاء قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: 20]، أي: جاء من هذا المكان القَصيّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (قرى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»